وقد يكون المقتبس بعض آية مع تورية واكتفاء كقول الشيخ برهان الدين القيراطي:

حسنات الحمد منهُ قد اطالت حسراتي
كلما ساء فعالاً قلت ان الحسنات

وفي القرآن آيات كثيرة موزونة مثل قوله: «فلا تحسبن الله مخلف وعده» وقوله: «وكفى بربك هادياً ونصيراً» و«يلقون فيها تحية وسلاما» و«تلا عليهِ بكرةً واصيلا» و«فذلكنَّ الذي لمتنني فيهِ» و«الحمد لله الذي اذهب عنا الحزنَ» الى غير ذلك مما هو مشهورٌ

عيسى اسكندر المعلوف

ارتقاء الامم وانحطاطها

الخص للقارىء النظريات التي يعلل بها علماء اوربا ارتقاء الامم وانحطاطها

(١) السبب الاقتصادي

اصدق نظرية عندي واكثر اقناعاً لي هي نظرية المستر روبرتسون التي شرحها في كتاب «مقدمة لدرس السياسة الانكليزية». خلاصتها ان الامم ترقى او تنحط بنسبة سعة ثروة البلاد وتجمعها او ضيقها وتفرقها. فاذا كثر عدد الاغنياء في الامة ولم تحتكر الثروة فئة قليلة كان شعورها بعدالة الحكومة او ظلمها والقدرة على مقاومة الاستبداد اشد واكثر مما لو كان عدد الاغنياء قليلاً يمكن للملك جذبهم الى جانبهِ ضد الامة والاستبداد بهم لسهولة تأليف جيش قوي من فقراء الامة يخضعهم دائماً

والتاريخ يثبت صحة هذه النظرية. فتقدم انكلترا الدستوري كان مصحوباً دائماً بازدياد عدد الاغنياء الصغار مثل الصناع والتجار وغيرهم ممن يخافون على ما يملكونهُ وبالتالي يهتمون بمراقبة الحكومة ومنعها من الاعتساف في الضرائب. وبديهي ان وجود طبقة في الامة كثيرة العدد من المتوسطين في الغنى مما يقوي نشر العلوم والآداب والفنون اكثر مما لو كانت هذه الطبقة كثيرة الغنى قليلة العدد. اذ في الحالة الاولى تنتشر المدارس فتكثر الكتب ويترفه الناس فترقى الفنون. اما في الحالة الثانية — قلة في العدد وكثرة في الغنى — فتؤول الحال الى جعل اكثرية الامة عبيداً اقتصاديين والاقلية الغنية تحط بانحطاط الاكثرية كما هي الحال الآن في المغرب الاقصى

فمصر في عهد المماليك اي في احط ادوار انحطاطها هي مصر التي كان يملكها بضعة من المالكين لا يزيدون على عدد الاصابع وبقية الامة عبيد تسخَّر . والنظام الاقطاعي الذي نشأ في اوربا على انقاض الدولة الرومانية انما نشأ بتكوُّم الثروة في ايدي افراد قليلين صاروا امراء وصارت الامة لهم عبيداً

وسبب سبق المانيا او انكلترا اليوم للدول الاخرى في ميدان المدنية هو كثرة عدد اغنيائهما المتوسطين على غيرها مع ارتقاء حالة عمالها . ففي المانيا يطبع مائة كتاب يومياً وللاشتراكيين وحدهم ما يقرب من سبعين جريدة يومية . وسبب هذا الرقي ان عدد الاغنياء المتوسطين في المانيا كبير يمكنهُ مساعدة المؤلفين والصحافيين وحالة العمال ليست شديدة السوء فاقل عامل المماني او انكليزي لا يأخذ اقل من مئة جنيهات شهرياً اجرة عمله ووجود مثل هذه الطبقة الكبيرة يحرك الحكومة دائماً للتقدم الاصلاحي . اما اذا احتكرت ثروة الامة فئة صغيرة وصارت الاكثرية اجراء ادّى ذلك الى الانحطاط فالفقير الذي لا يملك شيئاً من الدنيا لا يهمهُ سواء كانت الحكومة دستورية او استبدادية فلا يتحرك لثورة ضد ظالم الاَّ وقت النهب وعدم تربيته يعرّيه من كل فضائل الآداب فينحط وبكثرة امثاله تنحط الامة . ومثال ذلك : الفلاح المصري . فقد عمل العاملون على جذبهِ الى الحركة الوطنية وهو لا يلتفت وله الف حق في ذلك لاني اظن ان حالتهُ الحاضرة في سوء لا يمكن الوصول الى اكثر منهُ في اقسى احكام الاستبداد[1]

لهذا السبب تعمل الحكومات المتمدنة اليوم على حماية الطبقة المتوسطة من الامة على حساب الطبقة العالية فترى اليابان اليوم تضرب ضريبة قدرها ٦٨٠٠ جنيه على كل ١٠٠٠٠ جنيه من الدخل ولكنها لا تضرب الاَّ ١٧ جنيهاً على الذي لا يزيد دخلهُ عن مئة جنيه اي ان ضريبة الاغنياء تصل الى ٦٨ في المائة من دخلهم اما ضريبة الفقراء او الاغنياء المتوسطين فلا تزيد على ١٧ في المائة من دخلهم . اما في انجلترا فلا تضرب ضريبة الدخل الاَّ على الذي دخلهُ اكثر من ١٨٠ جنيهاً

وهذه النظرية التي نبَّه اليها ايضاً كارل ماركس هي سبب قوي للجري على المبادىء

---

(١) يظن حضرة الكاتب ان الحركة الوطنية ناتجة عن استثقال الظلم والحيف . اما نحن الذين نرى هذه الحركة بكلياتها وجزئياتها ومصادرها ومواردها فنعلم انها تجارة يتاجر بها قوم لمنفعتهم الذاتي وانهم اذا انتظموا ما يستحون صحبوا واذا صارت لهم السيادة كانوا اشد وطأة على الفلاح من الذين يتكون معهم الآن . وهذا القول اجمالي كما لا يخفى (المقتطف)

الاشتراكية[1] . واختراع الآلات يعتبر من هذا النظر واسطة من وسائط تأخر الامم لانهُ جعل المتوسط المستقل عاملاً اجنبياً . ولو لم يجئ اختراع الآلات بعد انتشار المعرفة وثبوت المدارس لكانت اوربا اليوم في آخر قارّات الارض تأخراً . اما وقد جاء في زمن التنوُّر فقد اتحد العمال وطلبوا حقوقهم بهمة ونشاط عوَّض عليهم خسارتهم وسيفيدهم الاشتراكية عن قريب

(٢) اسباب اخرى

اهم سبب اخر في انحطاط الامم والشعوب هو سبب يوجبي اي لهُ دخل وتأثير في بنية الامة . فوجود حاكم ظالم مثلاً يؤثر في الامة بتجريدها من النبوغ . فكم من نابغة دفنهُ عبد الحميد في اليوسفور وكم خسرنا بواسطة المماليك ؟

ولنظام الزواج تاثير في بنية الشعب . فبعض الولايات المتحدة تمنع المصابين بالداء الزهري واكثر اصحاب الامراض الوراثية من الزواج . هذا فضلاً عن خصاء المجرمين . ولاشك ان في ذلك تحسيناً لبنية الشعب

وقد يكون انتشار مرض مثل الملاريا سبباً آخر في سقوط او تأخر الامة كما يقول الدكتور صليبي . والتاريخ يثبت بادلة قوية ان هذا المرض كان احد اسباب سقوط اليونان . فان من خصائصهِ انهُ لا يقتل المريض بل يشل همتهُ فيجعلهُ خاملاً في العقل والجسم

ولا شك ايضاً كما يقول فلتون ان نظام الرهبانية في المسيحية والبوذية يجرد الامة من شيء من النبوغ . وقد يكون هو سبب سقوط اسبانيا — بعد ديوان التفتيش

ولعل من اهم الاسباب ايضاً سهولة المعيشة الى درجة ان لا تحتاج فيها الامة الى قوة فكرية عالية في اكتساب معاشها . فمن البديهي ان الزراعة في مصر لا تحتاج الى قوة عقلية كبيرة . اريد بذلك ان فرصة وجود ضعيف العقل بين الفلاحين اكثر من فرصة وجودهِ بين المحامين او الصحافيين . وبين المصريوجيين الآن جدال في سبب وقوف التمدن المصري القديم وعدم وصولهِ الى درجة التمدن اليوناني . ومن رأيهم ان سهولة المعيشة في مصر اوقفت الانتخاب الطبيعي فبدلاً من ان يدعو بقاء الاصلح الى بقاء الانبغ صار يدعو الى بقاء الابلد . ولا شك ان في هذا بعض الصحة ولكن اهم سبب اراهُ في وقوف التمدن المصري هو مصيبة النظام الهيراركي الذي كان عندهم . فبموجبهِ صار كل تغيّر كفراً ومخالفة للدين

(١) قلت الاشتراكية لان الكتاب لا يرضون بالسوشالية مع انها اضبط للمعنى المقصود من الكلمة ولكن هو مرض الشرجة يبتلي لوسع الهوة بيننا وبين اوربا

وسبب آخر قال به نيتشه هو انتشار الآداب العبدية كالاحسان والشفقة وغير ذلك مما يكثر الضعفاء في الامة

واذا كان لا بد من هذه الآداب — اذا كان لا بد من انشاء المستشفيات لشفاء المرضى والمارستانات لحماية المجانين والشكايا للضعفاء والزوجات للزنوج — اذا كان ذلك كذلك فلنفعل شيئاً نحمي به الراقي من الامة حتى نعدل الميزان . فاذا اظهر احد شيئاً يعد من درجة النبوغ فلنؤمنهُ على حياتهِ كما اشار بذلك ولس . لماذا يكسب مؤلفو الروايات الوفا من الجنيهات واذا قام احد والف كتاباً لغرض الخدمة الصحيحة جاز بناءهُ بالجوع ؟

من يمكنهُ تقدير الخسارة التي كانت تنالنا لو لم تساعد الحكومة الفرنسيجية ايسن على تأليف دراماتهِ ؟ ومن يمكنهُ ان يقدر الفائدة لبني الانسان اليوم من جائزة نوبل ؟ وقد كانت الحكومة المصرية تفعل شيئاً من ذلك ويا ليتها تعيد هذه العادة المفيدة . ففي كل البلاد تقريباً تجد اعانات للمؤلف حتى لا يضطر ان يكدح ليعيش والحكومة الفرنسوية تساعد « المركز ده فرانس » على ترجمة نيتشه . اما انا فالمقتطف يطاردني لاني خصت تعاليمهُ في جملة صفحات بريئة [1] . ولكن ما علينا

ونظرية وودرف يعرفها القراء . وخلاصتها ان الامم تنحط في البلاد الحارة لان نوعاً من الانسان طويل الرأس ينشئ مدنيتها ثم ينقرض منها بتأثير الضوء . وموطن هذا النوع ما حول البحر البلطيقي . والشعوب التي في البلاد الحارة منحطة لان سكانها عريضو الرؤوس وهم انثولوجياً اقل كفاءة في الاعمال من طويلي الرؤوس فاذا احتكوا بهم لم يقدروا على مزاحمتهم وصاروا عبيداً لهم وكما ان الضوء سم للمكروبات يقتلها اذا نفذ في جسمها كذلك هو سم ايضاً للانسان الابيض لشفوفة جلده وهذا هو سبب انقراض الآري في البلاد الحارة بعد مدة قليلة من استيطانهِ لها . وارتقاء الامم الشرقية وانحطاطها كان مصحوباً دائماً بمهاجرة الآريين اليها ثم بانقراضهم منها

سلامه موسى

---

(١) (المقتطف) . تعاليم نيتشه بعضها حسن لا غبار عليهِ وبعضها قبيح لا بد من تحطيمهِ . ويجب على ابناء العربية الذين يقتبسون من افكار الاوربيين ان يكونوا كالنحل يمتص العسل ويترك ما سواهُ . اما في اوربا فالجمهور متعلم يميز بين الغث والسمين نقلما تضرُّ به تعاليم المحطمين لاسيما وان كثيرين يحطمونها ويبقون فسادها واما عندنا فنقلما ينتبه الجمهور لتمييز بين الغث والسمين والضلال والصواب وبلادنا في غنىً عن الآراء السقيمة لكثرة ما فيها منها